



# جبران في عالم الفكرية

## جبران

بقلم الدكتور نديم نعيم

جبران نفسه « هو ابدا حقيقة مخنثة » (١) .

ان نعرف ان جبران كان يأخذ بفكرة التقمص هو نصف الحقيقة عن جبران . اما الحقيقة الكاملة ، اما الحقيقة غير « المخنثة » ، فتنحصر فقط عندما نحيا عقيدة التقمص كما عاشها جبران في عالمه الشعري ، فيكون ان يتخذ عالما فجأة شكلا اخر غير الذي تعودناه . انه عالم اول ما يقال فيه ان المجانين فيه فقط هم العقلاء ، وان الناهيين هم المهتمون ، وان المغنين نشازا فيه هم وحدهم المنسجمون مع النغم السوي . وتلبيح هذا هو في ان ابنا جيل نحن فيه هم ايضا ابنا الاجيال السالفة . ولما كانت ذاكرة الغالبية العظمى بيننا قصيرة ، كان ان القليلين منا ممن يدون وكانهم يسرون على غير ايقاعات جيلهم ، هم المنسجمون في سيرهم مع ايقاعات الحياة المتنافمة تراجعا ونواصلا حتى الازل . فتعاقب الاجيال التي يزحم بعضها بعضا في تاريخ الوجود ، كما توحي به احدي مقطوعات جبران القصصية الشعرية الباكرة ، ليس غير الرماد المتكسد حول اللهب الابدي المشتمل (٢) .

ان غايته من التشديد على ان الفكر عند شاعر اصيل هو حالة وجود اكثر منه عملا ذهنيا ، ليس ان امهد للاعتذار عن فلسفة جبران . فجبران الفكر والفيلسوف قد لا يعتبر مهما او جديدا او اصيلا على الاطلاق . وغايته ان انبه الى ان الفكر كحالة وجودية معاشة في الشعر ، هو متميز واكثر بما لا يقاس ، من الفكر عينه وقد اصبح موضوعا للعقل المحلل المثلل الدارس . ان الدويبة عينها التي تبسو في كتاب لعلم الاحياء ظاهرة تركيبية غاية في السهولة على الفهم ، تبقى بعد ذاتها نسيج حياة معجز . وتبرز قيمة هذا التنبيه اكثر فاكثر عندما نعي اي اهمية ثانوية يعطيها جبران نفسه للذهن ، محترف التفكير والتحليل ، بالقياس الى القلب ، ينبوع الالهام والعاطفة والحياة ، للعقل اذا ما قورن بالايمان ، ولللسان اذا ما قولت بالشعر . من هنا قوله في احدي شذراته : « عندما لا تجد الحياة مفتيا يفصح عن قلبها تلجا السى ايجاد فيلسوف يعبر عن فكرها » (٣) .

- ١ -

بديهي ان نقول ، ان الشيء - اي شيء - هو دائما ككل ، اكبر واعظم من الاجزاء التي يتكون منها . وحكم كهذا يصح اكثر ما يصح في الكائنات الحية ، ذلك اذا كان في هذا الوجود اللامتناهي ما يمكن ان يعتبر بلا حياة . من هنا يبدو ان الحقيقة الكاملة لاي شيء من الاشياء ، مهما كان صغيرا وتافها ستظل ابدا ابعد من ان يطولها التنقيب واشمل من ان يبلغها بحث وتحليل . حتى لكاته محتوم علينا كعلماء وفلاسفة وباحثين ومحللين ، ان نسعى الى الحقيقة الكاملة في الاشياء وفي الوجود ككل ، الا ننتهي الا الى انصاف الحقائق . فنحن نعمد الى تشريح جسم حي وتعليقه فيكون ان ننتهي الى جثة ، ونتناول شجرة نامية بالتقسيم والتحليل فتتحول بين ايدينا الى حطبة ، ونخضع الذرة للمراقبة والتمحيص والدراسة فلا تلبث ان تخرج من تحت مجهرنا معادلة رياضية . وهكذا يبدو ان الذي يؤدي اليه سعينا العموم عن طريق العقل وسائر علومه من اجل معرفة الاشياء هو ان نعرف الكثير عنها . اما ان نعرف الاشياء ذاتها في ترابطها الديناميكي الحي ، اما ان نعرف الوجود في ترابطه العضوي الحميم ، فمطلب يتغلب بتعريفه كلا من العقل والعلم والفلسفة . ان نحاول مثل تلك المعرفة ؟ اي ان نعرف الاشياء ذاتها لا مجرد ان نعرف عنها ، يعني ان نعبر من الفلسفة الى الشعر ، ومن العلم الى الدين والتصوف .

انها اذن لغارقة حقا ان الذي سنحاول هنا تمحيصه وتحليله ليس فير شاعر وصوفي . فنحن اذ نعمد الى اعمال جبران خليل جبران محاولين غرلبتها بغية استخلاص مضامينها الفكرية والفلسفية ، وتعريفها ، انما نبدو وكأننا نسوق انفسنا الى المزلق الاكيد . اننا نحاول ان نرد عالما شعريا متكامل هو عالم جبران ، الى عناصره المكونة بغية عزل واحد من تلك العناصر واستخراجه وبلورته ، واعني به العنصر الفكري ، في حين ان العالم الشعري ، عالم الشاعر الاصيل او الصوفي الاصيل ، لا يتكون من عناصر واجزاء . انه بالاحرى حال من الوعي والوجود ينصهر فيها جميع ما يسمى بالثنائيات والعناصر المكونة والجزيئات في نسيج متماسك حي بحيث لا يجوز للدارس ، اذا هو لم يشأ لنفسه الاكتفاء بانصاف الحقائق عن اي جانب من جوانب تلك الحال ، ان يجزيه ويحلل ويفسر . فما جدوى ان يقال مثلا ، ان جزءا من فلسفة جبران كشاعر هو ايمانه بالتقمص؟ انه كان يؤمن بالتقمص ، واقع لا شك فيه . ولكن « الواقع » كما يقول

- ١ - Sand And Foam ص ٥٩ .
- ٢ - راجع « رماد الاجيال والنار الخالدة » في المجموعة الكاملة لؤلغات جبران خليل جبران ج ١ ص ٦١ .
- ٣ - Sand and Foam ص ١٥ .

ولما كان جبران قد اتخذ لنفسه في جميع مؤلفاته دور المقتني الملمم الذي ندبته الحياة للتعبير عن قلبها ، فانه قط لم يشأ ان يخاطب عقولنا ولا هو شاء لنا ان نتوجه الى عقله . اننا ابدا مدعوون الى قلبه لا الى عقله ، الى ان نحس ونحيا ما يفنيه قبل ان نفهم او نستوضح ما يقوله غناء . يقول جبران : « الالهام ابدا يفني ولكنه قط لن يفسر » (٤) . ويقول في مكان اخر : « التفكير هو دائما حجر العثرة في طريق الشعر » (٥) . وكثيرا ما يبلغ جبران - شاعر القلب والالهام - في تعاليه على العقل كطريق بديل الى الحقيقة ، حد التهكم الجارح . يقول : « العقل فينا اسفنجة والقلب جدول . انه لغريب حقا ان الغالبية بيننا تختار الامتناس عوضا عن التدفق » (٦) .

اما وقد اخترنا هنا ان نمتص من شعر جبران عوضا عن ان نتدقق معه ، اما وقد اخترنا التحليل العقلي المجرد عوضا عن التمثل الشعري الحي ، فقد وضعنا انفسنا امام مفارقتين : الاولى اننا نكلف انفسنا تحليل العناصر الفكرية عند شاعر هو نفسه يجفو بطبيعته الفكر والتحليل . والثانية اننا في اعتماد الدرس والتحليل بغية الحصول على كامل الفكر الجبراني ، انما نحول الشعر الذي هو حالة وجود وحياة الى معادلات فكرية مجردة تفقد ، وقد تهرت ، انصاف ما كانته في الاصل . اما عذرنا في اننا نرضى ، على الرغم من كل ذلك ، ان نتابع ما نحن بصده فمستمد ايضا - مهما بدا ذلك مستغربا - من جبران نفسه . ذلك انه يقول في احدي شلراته : « ان نصف ما اقله هو بلا معنى . الا انني مع ذلك اقله كي يتسنى للنصف الاخر بلوغك » (٧) . وان املني اذ احل الفكر الجبراني واجرده من حياته الشعرية فافرغه هكذا من نصف معناه ، ان اخدم ذلك النصف الحي الاخر الذي لن يطوله تحليل .

- ٢ -

يقول « المصطفى » ، نبي جبران ، في حديثه عن العمل الى اهل اورفليس : « انما العمل حب وقد برز الى النور » (٨) . فمن الانصاف لجبران اذن ، ان نحسن شئنا فهم اعماله ، وهي ثمانية بالمرية وتسعة بالانكليزية ، ان نعتبرها المظاهر المختلفة لوجه الذي برز من خلالها الى النور . اما وان موضوعنا هو الاصول الفلسفية لهذه الاعمال ، اما وانه الفكر الجبراني في هذه المؤلفات ، فقد تحتم علينا ان نجد انفسنا وجها لوجه امام الحب بهذا المفهوم الجبراني المعين . ونحن ما ان نتناول هذا المفهوم ، الذي يشمل في نظرنا الروح الموحدة لاعمال جبران على اختلافها ، حتى نجدنا ايضا منساقين الى الاستماعة باحد اساندة الحب في التاريخ ممن لم يكن قط اقل شاعرية من جبران في هذا الموضوع ، وكان في الوقت نفسه اعظم منه كفيلسوف بما لا يقاس . اما الذي نعيه بهذا الحب العملاق ، فافلاطون .

في « المائدة » اهم كتاب في فلسفة الحب عند افلاطون ، وربما في التاريخ ايضا ، ان الحب اعظم شاهد على شعور الانسان بالنقص . فان تكون عاشقين يعني ان تكون في حالة توى الى محبوب او اخر نعتبر انفسنا بدوننا ناقصين . من هنا قول افلاطون مجازا ، ان الحب سليل زواج قام بين الحاجة والاستغناء . هو ابن الحاجة من جهة ، لان الحب ابدا ، طالب محتاج . وهو سليل الاستغناء من جهة اخرى ، لان غاية الحب اذ يسعى جاهدا الى وصل من يحب او ما يحب هي

في ان يبلغ بالوصل حالة من التمام والاستكفاء . ولكن اني لنا ونحن نحيا في عالم الزمان والمكان ، ان نبلغ حقا مثل تلك الحالة؟ انه لمحكوم قطعا على انسان يحيا في هذا العالم ، عالم التكون والانحلال ، عالم الصيرورة والتحول لا عالم الازلية والثبات ، ان يبقى ابدا في حالة نقص واحتياج ، وبالتالي في حالة عشق مستمر . فهو ما ان ينتهي الى ما يحسبه غاية شوقه وهيامه ومشتهاه ، حتى يتبين ان تلك الغاية ليست في حقيقتها غير البداية لغايات اخرى واشواق جديدة . فقط عندما يقضي للانسان ان يفهم ، كما فهم افلاطون ، ان عالم الزمان والمكان ليس غير الصورة المتحركة لوجه الازلي الثابت ، وان الانسان ، وان كان مزروعا في عالم الزمان والمكان ، ليس في جوهره من ابناء ذلك العالم - فقط عندما يبلغ الانسان مثل هذا الوعي يقضي له ان يدرك ان حيا يشده طيلة حياته الارضية الى الاتحاد بما من شأنه ان يطفء فيه الشوق ويسد النقص ويروي الحنين ، انما هو في حقيقته توى الغريب المستوحش في عالم الصيرورة والفناء الى الاتحاد بالازلي المطلق .

ما ان يرى الحب بهذا المنظار الافلاطوني حتى يتكشف عن القطين الدهريين المتقابلين في الحياة البشرية ، اللذين يشهد الانسان الواعي لوجوده ولطبيعته ابدا بينهما حتى ليكاد ان يتقطع . ففي الجهة الاولى يبرز قطب الانسان ، ذلك البذر الالهي المزدوج في التربة الغريبة - تربة الزمان والمكان - والمتهب شوقا وحنينا الى ان ينمو ويسقى فيحقيق ذاته ويكمل . وينتصب في انجته الثانية القطب الالهي . انه عالم الحقيقة الميتافيزيقية المطلقة الذي منه كان صدور الانسان الاول والذي لا يكتمل للانسان نقص فيهدأ شوق ويطفا لهيب الا بالرجوع اليه والاتحاد به واللويان فيه . كلا القطبيين المتشادين في الانسان الى حد التمزق ، لا زماني لا مكاني ، كلاهما علوي الهى . ولكن طريق الانسان الى ان يضم قطبا الى قطب في نفسه فيجمع شمله وينهي تمزقه وصلبيه ، تمر عبر الزمان والمكان. ولان غالبية الناس العظمى من سالكي هذا السبيل ليس عندهم ذلك الوعي الافلاطوني لمصدرهم العلوي ولا لغايتهم الالهية التي ينبغي ان ينتهوا اليها كترامه منجذبين حتى الاستغراق الى ما يستهويهم في درب الحياة اليومية من اغراض زمنية قريبة موهة . هؤلاء هم العشاق المخدعون . وهكذا يبقى للقلّة ، للقلّة الضئيلة جدا من ذوي الوعي الافلاطوني ، الذين يسيرون في درب الحياة وعيونهم مسورة ابدا على عالم الحقيقة العلوية البعيدة المطلقة - يبقى لهذه القلة ان تروي وحدها حكاية القربة العظمى التي تكتنف النفس البشرية في عالم الصيرورة وقصة شوق تلك النفس المحرق الى الديار ، وحنينها المخبسوب بدم الاماني الممزقة على درب الانتاق . ولقد كان جبران خليل جبران في جميع كتاباته كما في رسومه واحدا من تلك القلة الضئيلة. فنحن نكاد لا نعرض على شيء مما كتبه هذا الرجل او رسمه الا وهو في جوهره تعبیر عن نفس معذبة ، نفس يكويها الشعور بالقرب في عالم هي فيه ، ويشويها الشوق اللافت الى عالم مثالي ما ، يبدو وكأنه يبعث بعدا وتحجيا كلما ازدادت توقا وحنينا اليه . حتى ليصح ان يقال في جبران انه شاعر الحنين والقربة . واننا سنحاول فسي ضوء هذا الحنين وتلك القربة ان نتبين عالمه الفكري ونترسم خط تطوره .

- ٣ -

ان يكون انسان ما مهاجرا يعني ان يكون غريبا . اما ان يكون المهاجر شاعرا ، وشاعرا رومنيقيا ، فذاك يعني ان غربته مثلكة . فهو بالاضافة الى غربته الجغرافية ، غريب كشاعر ، عن مجتمع الناس التقليدي - هذا اذا كان للناس ان يجتمعوا على شيء سوى التقليد - وغريب ايضا كرومنيقي عن كل ما يشده الى عالم الزمان والمكان. من هنا كان لا بد لقربة مثلكة كهذه في نفس شاعر رومنيقي ، ان تلهب

٤ - م . ن ص ٢٢ .

٥ - م . ن ص ٢٤ .

٦ - م . ن ص ١٢ .

٧ - م . ن ص ١٤ .

٨ - The Prophet ص ٢٢ .

من الطبيعي في المرحلة الشابة الأولى من مؤلفات جبران ، ان يطفى وتر الحنين الى لبنان تحت انامل جبران العازف ، على الوترين الباقيين في قيثارته . انه هنا جبران المرتبط جسداً بحي الصينيين في بوسطن ، موطن هجرته الاول ، والمشدود روحاً الى لبنان بشري وادائياً وارز الرب ، مرتع الاثنتي عشرة سنة الاولى والمكونة في حياته .

نصم « عرائس المروج » مجموعة من ثلاث قصص قصيرة بينما تشتمل « الارواح المتمردة » على اربع اخرى . اما رواية ( الاجنحة المنكسرة ) فيمكن ، مع القليل من التجاوز ، ان تعتبر قصة قصيرة مطولة . وهكذا يصبح بالامكان ، اذا نحن تجاهلنا اسما هذه الكتب وتواريخ صدورهما ، ان نعتبرها مجموعة من ثمان قصص قصيرة متشابهة روحاً واسلوباً واغراضاً الى حد الترداد . فهي جميعاً تتخذ لنفسها اطاراً واحداً لا يتبدل : انه لبنان ، ارض الجمال الطبيعي المسحور . وهي جميعاً تقوم على اباطال ، ان نحن نتجاوزنا الاختلاف في اسمائهم واطوارهم الروائية المباشرة ، غداً وكانهم في الحقيقة واحد من حيث الجوهر ، او هم افئدة متعددة لوجه واحد هو جبران خليل جبران نفسه في هذه المرحلة الشابة من حياته . حتى ان جبران هذا كثيراً ما لا يحفل بان يلبس فناعه ويخفي هويته . كان يسمي احد اباطال قصص « الارواح المتمردة » خليل الكافي او يستخدم في « الاجنحة المنكسرة » ضمير المتكلم . فجبران ولبنانه اذن هما اللامعيان الاساسيان على المسرح في جميع هذه القصص : لبنان ووطن خيال جبران المسحور وموضوع حنينه في بوسطن ، وجبران المشتعل هشقا لوطنه المسحور وحنينا اليه .

الا ان جبران العاشق هذا ، شأنه شأن معظم المتيمين من العشاق ، انما يلجأ في افئدة المشوقة بحبه الصافي الالهي البريء واستمالتها الى المبالغة في تصوير الرياء والمهور والبغاء في جميع منافسيه على قلبها . اما المنافسون على امتلاك لبنان قلباً وروحاً ، فهم ، كما بدا لجبران رجال الكنيسة في لبنان القرن التاسع عشر ومطلع العشرين ، ونبلاؤه واقطاعيوه . من هنا جاءت الحكمة في هذه القصص - وبلا استثناء تقريباً - من النوع الذي ييسر لجبران البطل او لبطل جبراني ان يصرع مع واحد او اخر من هؤلاء المنافسين . فاذا لم يصرعه استطاع على الاقل ان يشهر به وان يعطي نفسه في الحالين مداها للفتن في وصف لبنان والتشبيب به طبيعة وسحراً وجمالاً .

يجمع الحب في « الاجنحة المنكسرة » بين جبران الشاب وسلمى كرامة . وتكن مطران المدينة يفرق بين قلبين ارتبطا ببرادة الحب ليزوج سلمى مرغمة من ابن اخيه الفظ الفليظ . وهكذا يفتح الباب واسماً امام جبران الكاتب ليشبع نهمه من التفني بجمال لبنان مسرح حبه المسحور ، وليصعب جام نغمته وغضبه من جهة اخرى على رجال الدين الذين يلبسون مسوح الطهر الاخروي ليستروا بها عري العهر الدنيوي الصارخ في نفوسهم .

اما « خليل الكافي » في « الارواح المتمردة » فيطرد خارج الدير في احدى ليالي الشتاء الثلجية المسورة لا لشيء الا لانه ، كما تصوره القصة ، كان اقرب الى المسيح وتعاليمه مما كان باستطاعة رئيس الدير ورفاقه الرهبان ان يتحملوه . وكان لخليل ان تنقذه من العاصفة في اخر لحظة ، ارملة وابنتها الجميلة بعد ان سمعتا انينه من كوخهما المنفرد عند طرف القرية . ولا يمضي طويل وقت على تخفي خليل عند منقذيه حتى تؤخذ الام بمسيحيته اللاهوتية المتحررة البكر فتصيح من مرديه ، وتنشف الابنة بنبل شخصيته وطلعتسه فيتحابا . وعندما يكتشف خليل ويلقى عليه القبض من قبل رجل الاقطاع

فيه حيننا مثلث الوجوه . انه حنين الى الوطن ، وحنين الى مجتمع انساني مثالي يلجأ اليه الشاعر ولو بالخيال ، وهو من جهة ثالثة حنين الى عالم خلف الزمان والمكان ، عالم الحقيقة العلوية الالهية المطلقة . هذا الحنين المثلث هو الذي تكونت منه تلك القيثارة ذات الاوتار الثلاثة التي عزف عليها جبران الحان حياته جميعاً . ان تطور عزفه من مرحلة الى اخرى ، كما يبدو من سياق مؤلفاته لم يكن ناجماً عن اي تبديل اجراه على آتله او في عدد اوتارها - فهو قط لم يعرف العزف على اكثر من تلك الاوتار - بل عن اختلاف في توزيع الضرب بحيث كانت تطفى انغام وتر ما في هذه المرحلة او تلك عن انغام رفيقيه . اما المرحلة الوحيدة التي تعادلت فيها انغام تلك الاوتار تحت انامل جبران فوصلت الى شبه هارمونية اثريسة موهمة ، فمرحلة « النبي » كتابه الام حيث يصبح كل من وطن المصطفى والمجتمع الانساني المثالي المسحور ، والعالم العلوي الالهي المطلق ، افانيم متساوية لحقيقة واحدة .

لعل خير توثيق « النبي » ولسان مؤلفات جبران الاخرى التي هي حصيلة حنينه المثلث وتجسيده له ، هي كتابه « الموسيقي » الذي اقتنع به حياته الادبية ، والذي طبعه بعد احدى عشرة سنة من هجرته الاولى الى بوسطن وهو غلام في الحادية عشرة . هذا الكتيب ذي الصفحات الثلاث عشرة ، الذي يشبه ان يكون في اسلوبه مسابقة انشائية لطالب ثانوي ، هو تشبيب بالموسيقى اكثر منه مقالاً فيها ودراسة عنها . فهو من هذه الناحية يعكس لنا الكثير من جبران المشبب والقليل القليل من ماضيه . اما جبران المشبب فيبدو عاطفياً متبادياً في عاطفته حتى البراهقة . الا انه مراهق يعرف كيف يسكب عواطفه في لغة هي غاية في الشاعرية وان تكون بعد طرية الصود محدودة الوارد ، مقلقة القواعد . اما اهمية الكتاب كتوثيق للفكر الجبراني ففي ما يكشفه في نفس صاحبه من معالم تلك الفريسة الميتافيزيقية وهي بعد في خطوطها الاولى ومما تولد عنها عند الفتى من حنين ضبابي مبهم كتيب . من هنا كان لجبران اليافع ان يرى في الموسيقي الاثريسة الكتيبة الموهمة تواماً لروحه وان يخاطبها في هذه الاسطر التالية بما يمكن ان يعتبر نموذجاً صادقاً عن الكتاب ككل ، ان من حيث الروح او الاسلوب .

« يا ابنة النفس والمحبة . يا انا مرارة الفرام وحلاوته . يا خيالات القلب البشري . يا ثمرة الحزن وثمره الفرح . يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة . . يا خمرة القلوب الراضة شاربها الى اعالي عالم الخيالات . يا مشجمة الجنود ومطسورة نفوس العابدين . يا ايتها النجوم الاثريسة الحاملة اشباح النفوس ويا بحر الرقة والطف ، الى امواجك نسلم انفسنا وفي اعماقك نستودع قلوبنا ، فاحملها السسى ما وراء المادة واريتنا ما تكنه عوالم الفيض » ( ٩ ) .

- { -

من موسيقى سنة ١٩٠٥ وحتى بداية عهد « النبي » سنة ١٩٢٣ الذي بدا فيه حنين جبران الطويل وكانه قد حمل صاحبه « الى ما وراء المادة » واطلعه على الكثير « مما تكنه عوالم الفيض » ، مسرت مؤلفات جبران كما مر فكره بمرحلتين اثنتين : الاولى مرحلة « عرائس المروج » و« الارواح المتمردة » و« الاجنحة المنكسرة » ( ودعوة وابتسامه ) وهي جميعاً مؤلفات شبابه التي ظهرت ما بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٤ . اما الثانية ، وهي الانضج نسيباً ، فمرحلة « الواكب » و« العواطف » بالبرية ونم ( المجنون ) ، اول مؤلفاته الانكليزية و« السابق » ثانيها الذي كان بمثابة التمهيد لظهور « النبي » .

ضده . ولكن ايا من ابطال جبران هؤلاء لا يوهي بانه يعمل بديلا جوهريا ما . او ان ما يحملونه من بديل - اذا جاز ان يعتبر كذلك - لا يتعدى كونه مجرد سلب لما يثرون عليه . فالبدل عن الحسب الفاسد المفسد مثلا هو كما يبدو عند ابطال جبران ، عدم وجود حب فاسد مفسد . او انه ذلك النوع من الحب الخيالي المسحور الذي نلقاه في « الانحة المتكسرة » . والدليل عن نظام اقطاعي هو انعدام وجود نظام اقطاعي ، انه ذلك النظام الاجتماعي الذي بلا نظام معين ، كالذي تنتهي اليه في « خليل الكافر » . والبديل عن كنيسة اصبح رجالها بلا مسيح هو مسيح بلا كنيسة ولا رجال على الاطلاق ، بلا جسم عقائدي محدد . اي انه مسيح مجنون كالذي تنتهي اليه في يوحنا .

ان مصلحا اجتماعيا ثائرا لا يملك البديل المحدد لما يثور عليه سرعان ما تنقلب البطولة فيه الى شذوذ فيتحول من بطل اجتماعي مصلح الى شاذ عن المجتمع لانه عاجز عن ان يتكيف معه فيكيهه . من هنا كان ابطال جبران - وربما بلا استثناء - « كفتارا » و « امجانين » ( و تائين ) وحتى « انبياء » و « آلهة » . انهم في كل ذلك يمثلون جبران حيي الصيغتين المقترن بالقلق المستوحش الشاذ في مجتمع هو فيه والمشدود ابدا عبر حنينه وخياله الى لبنان موطن طفولته المسحور وارض تطلعاته الى عالم من الجمال البكر المؤنس والعيش الدافئ الحميم . فكان هم جبران الحقيقي اذ يثور عبر ابطاله ، ليس ان يجتث المفسد التي تشوه المجتمع في لبنان الجميل ، بل ان يحطم المجتمع الفاسد الذي يشوه الجمال البكر في طبيعة لبنان التي بلا شائبة . ان همه الاول هو لبنان الطبيعة والجمال والطفولة ، وليس لبنان المجتمع والانسان .

وتزداد صورة هذا النوع من لبنان الذي تعمر به مخيلة جبران وضوحا ، في مقال لاحق حيث يقف لبنانه المرتجي المشدود واولئك الذين كانوا موضوع نغمته وتورته في قصصه وجها لوجه . ان اقصى ما يستوحى من خطاب جبران الى هؤلاء المفسدين في هذا المقال الذي دعاه « لكم لبنانكم ولي لبناني » ، ليس كيف يمكن تحويل لبنان الى مجتمع افضل ، بل كم هو لبنان جميل وخطاب بلا مجتمع على الاطلاق .  
يقول :

« .. لكم لبنانكم ولي لبناني .

لكم لبنانكم ومفضلاته ، ولي لبناني وجماله .

لكم لبنانكم بكل ما فيه من الاغراض والمنازع ،

ولي لبناني بما فيه من الاحلام والاماني ...

لبنانكم عقدة سياسة تحاول حلها الايام ، اما

لبناني فتلول تتعالي بهيبة وجمال نحو ازرقاق السماء .

لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي ، اما لبناني

فاودية هادئة سحرية تنموج في جنباتها

رنات الاجراس واغاني السواقي ...

لبنانكم مرافئ وبريد وتجارة ، اما لبناني ففكرة بعيدة

وعاطفة مشتعلة وكلمة علوية تهمسها الارض في اذن الفضاء ...

لبنانكم طوائف واحزاب ، اما لبناني فصيبة يتسلقون الصخور

ويركضون مع الجداول ويقذفون الاكر في الساحات ...

لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات ، اما لبناني فتفريد

الشحارير ، وحفيف اقصان الحور والسنديان ورجع صدى

النايات في المغاور والكهوف . « ( ١١ )

— التهمة على الصفحة ٥٥ —

في المنطقة ويؤتي به الى العاكمة امامه بتهمة الكفر والخروج على القانون ، ينتصب خليل في وسط جماهير البسطاء من الفلاحيين المرابعين الذين تجمعوا للتفرج ، ويتكلم كمسيح في مجيئه الثاني . ويمفط دفاعه ، الذي لا يلبث ان يتحول الى هجوم كاسح على الكنيسة والاطلاع وعلى ما بينهما من تحالف على الاستبداد ، قلوب القرويين الطيبين البائسين ، فيلتفون حوله نائرين متحدين . وتكون النتيجة ان ينتشر الاقطاعي هلما ويولي الكاهن المدعي هاربا . اما خليل فيقترن بفتاته . واما القرية فتحييا بعدها حياة اجتماعية سميدة في ظل المحبة والتعاون والعدل الطبيعي وبساطة التقوى في المسيحية البكر الاولى .

وياتي « يوحنا المجنون » في « عرائس المروج » وكأنه الصورة المكررة لخليل الكافر . يغفل يوحنا الراعي لحظة عن عجوله فتدخل املاك الدير . فلا يكون من رئيس الدير ورهبانه الا ان يسجنوا الراعي ويحتجزوا المعجول لقاء ما زعموا انه تمد على املاك مقدسة . وعندما يطلق سراح يوحنا بعد توسل مستميت من والديه ينتظر عيد الفصح وتجمع المصلين في الكنيسة ، ليهتبلها فرصة يتوجه فيها الى الجموع بخطبة بليغة صب فيها كل غضبته على رجال الكنيسة ورؤسائها: انهم الفريسيون المحدثون اعداء المسيح ، الذين يعيشون وينعمون في غفلة عن رسالتهم الحقيقية وعلى حساب البسطاء الكادحين البائسين الذين في قلوبهم حقا يقطن المسيح . ففي هؤلاء الفريسيين الجدد يقول يوحنا:

« لقد اقاموا يا يسوع لجد اسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحبر المنسوج ، والذهب اللدوب ، وتركوا اجساد مختاريك الفقراء عارية في الازقة الباردة ، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولهب الشموع ، وتركوا بطون المؤمنين بالوهيتك خالية من الخبز ، وافعموا الهواء بالترائبل والتساييح ، فلم يسمعو نداء اليتامى وتنهيدات الارامل . تعال لانيه يا يسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك فقد جعلوها مغاور تتلوى فيها افاعي روفهم واحتيالهم » ( ١٠ ) .

ولان يوحنا كان ينطق بالحق الخالص في نظام طبقي مستبد ، من اعدى اعدائه الحق والاخلاص ، فقد اعتبر مجنونا لا يستحق الاهتمام . وهكذا درج الناس على تلقيه ساخرين بيوحنا المجنون .

قد يتوقع بعد كل هذا ان نعتبر جبران القصص مصلحا اجتماعيا او ثائرا فكريا . وانه على اي حال كثيرا ما اعتبر كذلك من قبل مقيمي ادبه وفنه . والذي يشجع على مثل هذا الاعتبار ان ابطال قصصه منهمكون ابدا - وان يكن كلاما وخطابة - في حوض معارك تنسم بطابع اجتماعي اصلاحي . اما مثار العراك فقضايا ثلاث تكاد تكون دائما هي في جميع القصص : حب سماوي بريء يطفى عليه ويندسه ويقضي عليه مجتمع لا يفهم الحب الا وسيلة لآرب آناية قذرة ولاغراض دنوية خسيصة ، رجال دين يجمعون الثروة والقوة والسلطان باسم المسيح ورسالته بينما هم في الواقع اعدى اعداء المسيح ورسالته ، نظام اقطاع لرجال اقطاع يمتصون دماء الناس ليغدوا الوحش الذي احتل في قلوبهم مكان الانسان .

الا ان جبران ، على الرغم من جميع مظاهر الثورة والاصلاح الاجتماعي يبقى في قصصه هذه ابعث من ان يستحق لقب الثائر او المصلح الاجتماعي .

ان تكون مصلحا ثائرا يعني ان يكون لديك البديل لما انت ثائر

## جبران في عالمه الفكري

- نابع المنشور على الصفحة ٢١ -

لا عجب اذن في ان يكون الخمام الذي انتهت عنده هذه المرحلة الاولى من حياة جبران الادبية ليس خطوات لاحقة في الثورة والاصلاح بل كتاب « دعة وابتسامه ». ان الدموع التي تطفى على البسمات في هذه المجموعة من المنشورات الشعرية هي بكل وضوح دموع جبران المستوحش الشاذ عن مجتمعه في بوسطن لا جبران الناثر الاجتماعي، جبران المغني بصوت شجي موجه الحان الغربية والحب انوؤود وتقاسيم الكابة وانتوحد والتحرق الى الوضن مشحونة بنوع من الحنين الفامض الى دنيا مفارقة . اما البسمات في هذه المجموعة فتجسيد للحظات كانت حتى الآن متباعدة في حياة جبران المغترب فبدأت تتزايد وتتقارب وتتواصل في اطراد، لحظات لا يعود فيها لبنان ، بلد الجمال المسحور، فسحة أرضية جغرافية ، بل يتحول تدريجيا في خلد الشاعر ومخيلته الى رمز لوطن علوي الهي مفارق . فبعد محاولات اولية في ادب جبران السابق ، كما في « رماد الاجيال والنار الخالدة » احدى قصص « عرائس المروج » التي يتجلى فيها ايمانه بالتمص ، اخذ جبران في منشورات « دعة وابتسامه » الشعرية يعطي حنينه الى الوطن انجاها افلاطونيا واضحا ومطرذا . ففربته قد اصبحت غربة النفس الانسانية السجينة في عالم الزمان والمكان . كما اصبح حنينه الى الديار حنين تلك النفس المتطلعة من خلال سجنها الى عالم الهي مطلق ، منه كان نزولها في البدء وعنه كان تزوجها واليه يشدها الحنين المصني والاشواق المبرحة . من هنا كانت الحياة الانسانية دعة وابتسامه : دمعسة يعتمرها انزوح الميتافيزيقي والغرب ، وابتسامه يضيؤها امل الانتاق والعودة الى الديار . وهكذا يصبح المثل التقليدي للبحر والنهر والمطر مالوفا في كتابات جبران : فالطر هو دموع البحر المنتحب اغترابا فوق الجبال والسهول والادوية ، وخرير الجداول هو اغاني الماء الهازج فرحا في طريق العودة الى البيت الابوي . تقول احدى منشورات جبران الشعر في « دعة وابتسامه » :

« تبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق الطلول والادوية حتى اذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت الى الجداول ورجعت الى البحر موطنها . كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر كقيمة فوق جبال الاحزان وسهول الافراح فتلتقي بنسيمات الموت فترجع الى حيث كانت ، الى بحر المحبة والجمال ، الى الله ... » (١٢) .

لقد عمد جبران ، عندما كان لبنان يجسد صورة الوطن فسي مخيلته ويشكل موضوع حنينه ، الى صب نقمته وغضبه على اولئك الذين رأى أنهم يشوهون وجه لبنانه الجميل البتول . اما وقد بدأ موطن جبران يتحول في ذهنه الى عالم ميتافيزيقي افلاطوني مجرد، فان ثورته المبررة لم تعد مقصورة على رجال الدين والاقطاعيين المستقلين المستبدين وغيرهم ممن شوهوا في مخيلته صورة لبنانه الحبيب ، بل تعدتهم الى الانسان ككل ، ذلك المغترب في عالمه الزمني المكاني عنوطن الالوهة الذي منه تحدر . لقد كان من الانسان في مفتربه الارضسي المادي اللنيء ان مسح في نفسه صورة الوطن الام ، صورة الله الكاملة التي كانت له في البدء . وهكذا فان تفرد جبران ونقمته وثورته لم

تعد تستهدف المجتمع اللبناني او أي مجتمع محلي آخر ، بل الانسان قاطبة في مجتمعه الارضي الاوسع . مثل هذه النعمة وهذا التفرد هو انذي يشكل الخط الرئيسي المتصل الذي ينظم كلا من قصيدة جبران الطويلة « المواكب » الصادرة سنة ١٩١٩ ، ومجموعة مقالات « العواصف » آخر كتاب صدر له بالعربية سنة ١٩٢٠ ، « والجنون » اول كتبه الانكليزية الصادر سنة ١٩١٨ ، و « السابق » فانها ، الذي صدر سنة ١٩٢٠ . والكتبان الاخيران مجموعتان من الاوابس والمنثورات الشعرية القصيرة .

- ٥ -

ليست الهجرة في حد ذاتها ، هي النسي بخلق فينا الشعور بالاعتراب . فاذا كان الانسان ، كما في المفهوم الافلاطوني الجبراني من مصدر علوي الهي ، كنا جميعا في عالم الزمان والمكان مهاجرين ورفاق طريق . اما الذي يحس الغربة الموحشة المبررة حقا ، فنفس تهي انها من ديار علوية ، ولكنها اذ توجه الى رفاقها في الهجرة من بني البشر تجد ان ليس في الدرب الى الله سواها وانهم جميعا لاهون عنها بسفاسف عالمهم الترابي يتمرفون باوحاله في نشوة من يرى فيه غاية الارب ومنتهى الطاف . مثل تلك الغربة المبررة هي التي احست بها نفس جبران فولدت فيه مزيجا من التفرد من الناس والتعالي عليهم طفى على المرحلة الثانية من حياته الادبية كلها واضفى عليها صفتها المميزة . اما التعالي ، فلان جبران الذي اعتبر نفسه وحيدا في وعيه الوهية ، احس وكأنه ارفع من ان ينتمي الى سائر البشر في غيابهم الترابي البليد . واما التفرد ، فلان سائر البشر قد بسدوا له من عليائه وكانهم في طينهم الارضي سلالات مزورة ، كأنهم « ابناة الالهة واحفاد القرد » . (١٢)

ان ذلك المزيج من التعالي والتفرد هو تماما ما يحسه يوسف الفخري بطل جبران في مقطوعته القصصية « العاصفة » (١٤) فيوسف الذي يعتزل الناس تعاليا في كوخ متوحد بين الجبال العاصية ، يصبح بالنسبة الى الجيرة كلها لغزا يوحى بالجلال والرهبة . الا انه لا يلبث ان يبوح بسر عزلته البطولية وصمته الرهيب لراوية القصة ، جبران ، عندما يضطر في ليلة ليلاء وقد فاجأته العاصفة وهو فسي الجبال ، ان يلجأ الى ذلك الكوخ ، ريثما ينحبس المطر . يقول يوسف الفخري :

« ... نعم باطلة هي اعمال الانسان ، وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والاماني وباطل كل شيء على الارض . وليس بين اباطيل الحياة سوى امر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها - ليس هناك غير شيء واحد ... فكرة تفاجئ وجدان الانسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة ... منتصبه كبرج من النور بين الارض واللانهاية » (١٥) .

هكذا كان ليوسف الفخري وهو المتطلع الى سائر البشر من على رأس برج الحياة ، من خلال نفسه المتألهة العملاقة كما بدت له في لحظة اشراق مذهلة ، ان يراه في عيشهم الارضي المزور البليد عند قاعدة البرج ، في غياب نفوسهم البهيمية التي لا تجرؤ على ان ترفع ابصارها عن مواخير التراب الى القمم الانهية في كل منهم ، اقواما يشيرون التفرد والاشمزاز ، وجبناء مرابئين يشيرون الاحتقار والكراهية . يقول يوسف الفخري مكملا ايضا حقه لضيئه :

١٢ - راجع مقاله بهذا العنوان في المجموعة الكاملة ج ٣ ص ٤٩ .

١٤ - راجع المجموعة الكاملة ج ٣ ص ١٠٠ .

١٥ - م . ن ج ٢ ص ١١١ .

١٢ - م . ن ج ٢ ص ٩٥

« ... هجرت الناس لان اخلافي لا تنطبق على اخلاقهم ، واخلامي لا تنفق مع اخلامهم ، نكرت البشر لانني وجدت نفسي دولابا يدور يمنة بين دواليب تدور يسارا » . الى ان يقول « لا يا اخي لم اطلب الوحدة للصلاة والتشف ، بل طلبتها هاربا من الناس وشرائهم وتعاليمهم وبقائدهم وافكارهم وضجيجهم وعويلهم . طلبت الوحدة لكي لا ارى اوجه الرجال الذي يبيعون نفوسهم ليشتروا بانمانها ما كان دون نفوسهم فدرا وشرقا ... » (١٦)

اما في « حفرة القبور » ، وهي مقطوعة قصصية اخرى في العواصف ، فان هؤلاء الرجال ، وهم يمثلون في نظر جبران المجتمع البشري بأسره ، ليسوا في حقيقة عيشتهم سوى جثث متعفنة تنته . ذلك ما يوضحه لجبران الراوية بطل قصته الذي لا يزيد عن كونه صورة مكرورة ليوسف الفخري :

« أنت تنظر بعين الوهم فتري الناس يرتمشون امام عاصفة الحياة فظنهم احياء وهم اموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منظرين فوق الثرى ورائحة التنت تبعث منهم » (١٧) . من هنا كانت نصيحة ذلك البطل لمحدثه بان اجل صناعة يمكن ان يمتهنها انسان عملاق سما بنفسه الى قمة برج الحياة ، هي حفرة القبور . وهكذا ينهي جبران الراوية الى القول :

« ومن تلك الساعة الى الآن وانا احفر القبور والحد الاموات ، غير ان الاموات كثيرون وانا وحدي وليس من يسمفني » (١٨) .

اما اسم محدث جبران وبطل قصته فهو « الاله المجنون » . ولعله باستطاعتنا أيضا وبكل انسجام مع موقف جبران الفكري في هذه المرحلة من حياته الادبية والشعرية ان نعتبر ذلك الاسم مرادفا في قاموسه لـ « الانسان المثاله » .

ان تكون العاقل الوحيد بين مجموعة من المجانين ، يعني ان تعتبر المجنون الاوحد في جماعة كلهم عقلاء . اذا كانت الحياة كما يفهمها يوسف الفخري يرجا قاعدته الارض ورأسه في السرى العلوية الالهية اللامتناهية ، فالذي يتشبت بالذروة اللامتناهية علوا في نفسه سيعتبر حتما مجنونا ومنبوذا من قبل المسترخين المتمرفين على الحضيض عند القاعدة ، ذلك بالضبط ما اعطى « المجنون » في كتاب جبران الانكليزي الاول بهذا الاسم لقبه وشهرته . فالمجنون هذا بعد ان سرقت جميع اقنعتة التي كان يستتر بها ، سار في شوارع المدينة عاريا - تماما كما هو شان كل مسافر من المادي الجسدي في نفسه السى السماوي الالهى المجرد . وعندما شاهده في عريه احدهم صاح من على احد السطوح : انظروا انه مجنون . وعندما التفت المجنون الى اعلى قبلت الشمس - نفسه العلوية - وجهه العاري لاول مرة . ومنذ ذلك الحين أصبح مفرما بالشمس ولم يعد يشناق بعنها ابدا الى اقنعتة المسلوية ، الى علاقته البشرية الارضية السفلية المنبتة . وهكذا أصبح يعرف ابدا بالمجنون . وكمجنون أصبح بعدها في حرب دائمة على الناس ومجتمعات الناس واعراف الناس .

« المواكب » ، فصيدة جبران الطولى بالعربية ، حوار بين صوتين . والصوتان ، ان نحن ارهنا السمع ، صادران على ما يبدو ، عن

- ١٦ - ٢٠٢ ن ج ٢ ص ١٠٦ .
- ١٧ - ٢٠٢ ن ج ٢ ص ١١ .
- ١٨ - ٢٠٢ ن ج ٢ ص ١٥ .

اسار واحد : انه احد هؤلاء المجانين الجبرانيين ، او اولئك الذين سموا بتنوسهم على الطريقة الجبرانية ، الى ذراها الالهية على رأس البرج فاصبح كل منهم اله نفسه . فهو ان انقى بصره الى اسفل فرأى سائر الناس في تمرغهم الحضيضي عند القاعدة ، رفع عقيرته مسرعا من زيفهم منهكما على الهتهم ، ساخرا من نظمهم وتقاليدهم ، شامسا بقيمهم انبي يتدو في غناها وكأنه محوم عليها ان تظل ابدا في تناقض وفوضى وصدام . وهو ان ارتفع بصره الى عاله العلوي الرفيع على قمة البرج ، هناك بعيدا فوق تناهيات الزمان والمكان وتناقضات الخير والشر ، وخلف الحياة والموت ، هناك حيث تتداخل جميع التناهيات وتلج في وحدة شامنة ، رفع صوته مسبحا الحياة انكليه انكوية انطقه . فاذا ارتفع الصوت الاول قائلا :

« والعدل في الارض يبكي الجن لو سمعوا به ويستصحك الاموات لو نظروا فالسجن والموت للجانيين ان صفروا والمجد والفخر والآراء ان كبروا فسارق الزهر مذموم ومحترق وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر وقائل الجسم مقتول بفعلته وقائل الروح لا تدري به البشر »  
ردد الصوت الثاني من جهته :

« ليس في الغابات عدل لا ولا فيها العقاب فاذا الصفصاف القى ظله فوق التراب لا يقول السرو هذي بدعة ضد الكتاب ان عدل الناس تلج ان رآته الشمس ذاب

اعطني الناي وغن فالنا عدل انفلوب وانين الناي يقيى بعدان بنى الذنوب» (١٩)

ان يبلغ الانسان قطبه الالهى فيكتمل ، يعني ان يبلغ مرحلة من الطمينة النفسية والفهم العميق والرضى والمحبة الشمولية المسكرة . اما وان جبران وأبطاله الجبرانيين ما زالوا الهة مجانين ، وحفاري فيور وأعداء للانسان والمجتمع البشري قاطبة ، اما وانهم ما زالوا ، على الرغم من زعمهم بلوغ قطبهم العلوي على رأس برج الحياة ، مغممين بالمرارة والثورة المسومة الحائقة ، فليل على ان الاكتمال الجبراني المزعوم خلال هذه المرحلة الثانية من ادب صاحبه كان اقرب الى الادعاء منه الى اليقين والى الوهم والايهام منه الى واقع حال راهن محقق . فكان انشغال جبران « المجنون » او جبران ( السوبرمان ) بصراعه الشخصي المنيف من اجل تبين وجه الحق ، وبوحدته الذاتية الميرة على درب التسامي الروحي ، فد حال ليس فقط بينه وبين غبطة الاكتمال على رأس برج كان في الواقع ما يزال بعيدا كل البعد عن بلوغه ، بل ايضا بينه وبين ان يعي المأساة الكبرى في حياة اخوان له في الناسوت صائعين غارقين في اوحال دنياهم عند القاعدة . وهكذا كان لجبران ان اعلن تقززه من الناس وسخطه وحقدته عليهم ، في حين كان ينتظر ان يشير فيه ضياعهم وهو المهتدي ، حنانا ورناء ورافة ومحبة .

اما وقد أفرغ جبران في هذه المرحلة جميع ماكان في نفسه من سخط ومرارة على الانسان ومجتمعه ، فقد تحتم عليه بحكم طبيعة المرتكزات التي قام عليها تفكيره ان يعبر في تطوره الفلسفي السى مرحلة لاحقة ثالثة . انها مرحلة « النبي » ، مؤلفه الام ، ( ويسوع

ليس فقط على الحنين الى الله ، بل ايضا على صورة الله موضوع حنينه ، وعلى الطريق المؤدي الى الاكتمال على تلك الصورة . من هنا يأتي قول جبران في السابق :

« أب سابق نفسك . والأبراج التي بنيتها حتى الآن ليست غير الفواعد في نفسك العملاقة » (٢٢) .

ما أن أرى جبران الانسان بهذا المنظر حتى ثم يعد بمقدوره ان يكون « حمار نبور » . ان مرحلة جديدة في حياته قد بدأت . الناس جميعا سنيون اليبون ، وليس في امثالهم يصح الموت . اما انهم يتعرفون في اوحال عالمهم الارضي ، ويتلهون بسفاسفه ، فذاك ليس لانهم من احسة بحيث يثيرون في النفس التفرز ، بل لانهم في جهلهم ذاهلون عن الله في نفوسهم . شابههم في ذلك شان قطعة الخشب الهشبة الباردة في ذوبها عن النار الهاجمة في داتها ، حتى اذا مسها قيس خارجي منبه ، استيعظت تلك النار وتفتحت فيضاً من لهب ونور . لا ، ليس الى حفار قبور يفتخر الناس ، بل الى ميه موفظ ، الى قابلة سقراطيه ، سمعهم على ايفاظ الله الهاجع في نفوسهم كيما تقسو بك النفوس واحدة مع الله . وهكذا ينسد الستار في هذه المرحلة الجديدة على المفضب والجنون وحفار القبور في جبران ، ليبرز مكانه جبران المنبه والموقف والنبي .

( البقية في العدد القادم )  
نديم بعيمه

بيروت

٢٢ - The Forerunner - ص ٧ .

يصدر قريباً :

موضوعات في

الجبهة الوطنية التقدمية

تأليف الأستاذ عزيز السيد جاسم

( ١ ) - بعد بروز ظاهرة « الرجعية الجديدة ما هي اسس العمل الثوري العربي المعاصر ؟

في هذا الكتاب اجابة علمية على هذا التساؤل الهام .

( ٢ ) - لماذا تتأكد اهمية الجبهة الوطنية التقدمية بعد هزيمة حزيران ؟

هذا الكتاب اجابة على ذلك السؤال الجوهري .

( ٣ ) والكتاب المذكور ، محاولة جادة لتقديم تحليل نظري ثوري لاهمية الجبهة الوطنية التقدمية في عموم الوطن العربي .

منشورات مكتبة النهضة - بغداد  
التوزيع للعالم العربي - دار الطليعة - بيروت

بن الانسان ) و « الله الارض » انذي كان خانمة اعماله . وقد اتى « السابق » ، وهو مجموعة ازديد منشورات شعرية صدرت سنة ١٩٢٢ ، وكأنه انتخاب العبارة بين المرهنتين .

ان نؤمن كما آمن جبران بان الحياة برج فاعده الارض وقمته اللانهائية المطلقة ، يعني ان نؤمن ايضا بان انجياة جميعا وحدة متماسكة لا تنقسم ولا تنجز . فانظمة لا يمكن ان تعلق الى ابعدها مما تستطيع ان ترتفع بها الفواعد التي تقوم عليها . اما ان ينتكر احدهم ، وهو في قمة برج الحياه لاوثك الذين هم في القاعدة وان يرفضهم كما فعل جبران حتى الآن ، فيعني في الحقيقة ان يقوض الاعالي التي هو فيها وان يجعل نفسه احط وادنى حتى من اسفل الذين ينتكر لهم ويرفضهم . من هنا كان لاحدى منشورات جبران الشعرية الصافية في « السابق » ان تقوّل ركانها تحاول التكفير عن كل ما صدر عن جبران من سورة نيئتوية متسرعة جارفة :

« كم انا غر بعد ومثضب لآكون ذاتي انطلقت » .

وكيف لي ان ابلغ ذاتي المطلقة الا اذا ذبحت ذواني المكبله ، او الا اذا غدا الناس جميعا مطلقين .

كيف للنسر في ذاتي ان يطلق امام وجه الشمس قبل ان يغادر فراخي العش الذي بنيته انا نفسي لهم بمقتاري » . (٢٠)

ان ايمان جبران بوحدة الحياة الذي كان حتى الآن يلوح متقطعا في كتاباته وحيانا مشوشا ، ثم لا يلبث ان يفور ، قد غدا فيما بعد بجميع مستلزماته الفكرية الأخرى ، المحور الذي دار حوله ما تبقى من مؤلفاته جميعا .

اذا كانت الحياة وحدة كلية لا متناهية ، فان كل كائن حسي بالتالي ، وخاصة الانسان ، هو عالم اصغر . انه اللامتناهي وقد لف بالقمط ، كما لو كان ، تماما كما هي البذرة بعد ذاتها شجرة كاملة مغطاة .

تقول احدى شذرات جبران في واحد من مؤلفاته اللاحقة (كل بذرة هي كتلة من حنين ) . (٢١) وان الذي نفهمه بهذا الحنين ، انه شوق الشجرة في البذرة الى تمزيق الجدران التي تكتنفها والانطلاق نحو الاكتمال في الشجرة التي كانت قبل ان تدخل القمط . فكل بذرة اذن تنطوي في ذاتها ليس فقط على اشواقها ، بل ايضا على صورة الاكتمال الذي تشنقه وعلى الطريق المؤدي الى ذلك الاكتمال . ان نعتمد القياس نفسه بالنسبة الى البشر يعني ان نقول ان كل انسان هو بذرة الهية ، انه الحياة اللامتناهية المطلقة في القمط . فكل انسان بالنسبة الى جبران اذن ، هو كتلة من حنين . انه حنين الاله المغطى في الانسان الى الانسان في الله الذي كانه قبل ان يدخل القمط .

في احدى شذرات جبران ان « ما من حنين الا ويتحقق » (٢٢) ما من انسان اذن ، الا وهو صائر الى التائه ، الا وهو عائد الى الله الذي منه كان صدره في البدء . انه ، كالبثور ، ينطوي في ذاته

٢٠ - The Forerunner - ص ٧ .

٢١ - Sand and Foam - ص ١٦ .

٢٢ - م . ن . ص ٢٥ .